

الدال والمدلول: دراسة في الفكر اللغوي عند ابن جني

محمد أحمد أبو عيد / الأردن

Signfer and Signfied: A Study of Ibin Jini's Linguistic Thought

Mohammad Ahmed Abueid

Al-Balqa' Applied University, Irbid College University P.O. box 1293

Email: abueid_mohammad@yahoo.com

Received: 16 Feb. 2013; Revised: 9 Mar.-20 May 2013; Accepted: 1 August 2013

Published online: 1 Sept. 2013

Abstract: This study aims at revealing "Ibn Jini's" linguistic approach in signifier-signified relationship by studying his book "Al- Khasa'is" and defining the roots of his thoughts that former Arab and human researchers studies of "Ibn Jini". Also, the studies of other researchers include those who followed him in order to reveal the status of those thoughts of modern linguistic subjects.

The study concludes that:

- "Ibn jinni" has no priority in finding out the relationship between the signifier and signified rather than expanding in the subject itself.
- Modern Arab researchers deny "Ibn Jini's" layouts about this relationship.
- Researchers' denial derives from thoughts and theories of modern linguistics about the signifier and the signified.

Keywords: signfer, signfied, ibn jini, linguistics.

الدال والمدلول

دراسة في الفكر اللغوي عند ابن جني

محمد أحمد أبو عيد / الأردن

فاتحة الدراسة:

ذهب كثير من الفلاسفة الأقدمين إلى أن ثمة صلة طبيعية بين الدال والمدلول، وهي صلة شبهت عندهم بالصلة بين النار والاحتراق والخصب والنماء¹، فالدال، على ذلك، سبب للدلالة، والرابط بينهما، أي الدال والمدلول، رابط طبيعي ذاتي².

ومن هذا المنطلق، يصف سقراط اللغة المثالية: بأنها تلك اللغة التي تربط بين الألفاظ ودلالاتها ربطاً طبيعياً ذاتياً، وعلى وجه التعيين، يكون ذلك الربط في الألفاظ المنبثقة، أصلاً، عن أصوات الطبيعة من حفيف وخرير وزفير³. وكان أفلاطون تبع أستاذه في ما ذهب إليه⁴.

بل إن بعضاً من هؤلاء الفلاسفة ظل منحازاً للقول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، حتى في الحالات التي عسر الكشف فيها عن تلك العلاقة، فذهب إلى أنها، أي العلاقة الطبيعية، كانت جلية في بدايات التكوين اللغوي، وفي مرحلة تالية صارت اللغة إلى حالة من التطور،

عسر معها على - قادم الأجيال - أن تقف على حقيقة تلك العلاقة⁵.

من جهة أخرى، تزعم أرسطو طائفة من الفلاسفة، قالت باصطلاحية أو عرفية العلاقة بين الدال والمدلول⁶؛ وعليه، فإن النقاش في العلاقة العرفية أو الطبيعية بين الدال والمدلول في الضفة الأخرى من العالم القديم لم يصل إلى نتيجة واحدة يسلم بها الناس، جميعاً، وهو ما ألقى بظلاله - كما يعتقد الباحث الحالي - على الدراسات العربية المعنية بالموضوع، مع ملاحظة أن ثمة انحيازاً عربياً، يمثله أكثر اللغويين، للرأي الأول، والمتمثل بالقول بطبيعية العلاقة وسببيتها.

يقول السيوطي: "كاد أهل اللغة يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني"⁷، وتجسيدا لذلك، ينقل الأنباري عن الكوفيين قولهم: إن أصل اللفظ "إنسان" يعود إلى النسيان، وعن البصريين ينقل أنهم قالوا: بل أصله، أي اللفظ إنسان، من الإنس، وسمي الإنس إنساً لظهورهم، إذ إنني أنس الشيء إذا أبصرته، وذلك على خلاف "الجن"؛ إذ إن اللفظ يأتي من الاجتنان

⁵ أنيس، أسرار اللغة، ص 62.

⁶ أنيس، أسرار اللغة، ص 141.

⁷ السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد

المولى، بيروت، دار الجيل، دت، ص 47.

¹ أنيس، إبراهيم، أسرار اللغة، ط 5، مصر، 1975، ص 62.

² أنيس، أسرار اللغة، ص 62.

³ أنيس، أسرار اللغة، ص 62.

⁴ هلال، عبدالغفار، العربية، خصائصها وسماتها، ط 4، 1995، ص 274.

العلاقة على محاور متعددة، تتولى الدراسة تناولها على الشاكلة الآتية:

إمساس الألفاظ أشباه المعاني:

ولعله من أكثر الأبواب إظهاراً للعلاقة بين الدال والمدلول، وفق فرضية ابن جني، فقد انطوى الباب على أفكار عدة، منها:

أ- البنية الصرفية ودلالاتها على المعنى:
ومن ذلك بنية المضغف، إذ إنها تدل - كما يرى ابن جني - على التكرير، كما في الزعزعة والقلقلة والجرجرة¹²، ومنها بنية استفعال، وتدلل على الطلب، من مثل: استنطم واستسقى واستوهب¹³، ومنه أن جعلت العرب تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل، كما في كسّر، وقطّع، وفتّح¹⁴.

ب- مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث:

ومن ذلك قول العرب سدّ وصدّ، فالسد دون الصد، لأن السد للباب يُسد، والصد للجبل والوادي والشعب، فخصصوا الصد للأقوى دون السين، لأن الصاد أقوى بما فيها من الاستعلاء، ومن ذلك قولهم الوسيلة والوصيلة، فالصاد أقوى صوتاً من السين، لما فيها من الاستعلاء، أيضاً، والوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، وذلك أن التوسل ليس له عصمة الوصل والصلة، بل الصلة أصلها من اتصال الشيء بالشيء ومماسته له، وكونه في أكثر الأحوال بعضاً له كاتصال الأعضاء بالإنسان وهي أبعاضه، والتوسل معنى يضعف ويصغر أن يكون المتوسل جزءاً أو كالجزء من المتوسل إليه، فجعلوا الصاد، لقوتها، للمعنى الأقوى، والسين لضعفها للمعنى الأضعف¹⁵، ومنه قولهم خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب، والقضم للصلب اليابس من المأكولات¹⁶.

والاستتار⁸؛ فيغض الطرف عن موضع التخالف بين البصريين والكوفيين، يمكن لنا أن نقول: إن الطرفين اتفقا على القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، وذلك، وفقاً، لما يفضي إليه تفسير التنازع في المسألة الخلافية تلك.

وفي الإطار نفسه، يجعل الصيمري المعتزلي المناسبة بين الدال والمدلول أمراً مسلماً به، لا على مستوى العربية، فحسب، بل على مستوى اللغات، جميعاً، ومن ذلك ما نقل عنه أنه سئل عن معنى لفظة فارسية "أذغاخ"، فأجاب: بأنه يجد فيها ييساً شديداً، ومن ثم، فهي الحجر⁹.

وبغض الطرف، وصرف النظر عن صحة هذه الرواية¹⁰، فإن ما يجدر بنا التوقف عنده، هو ما وصل إليه الصيمري من تطرف بخصوص القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول؛ وهو تطرف أنكزه كثير من العلماء العرب، وهم من وافقوه، من حيث المبدأ، على القول بالعلاقة الطبيعية¹¹.

كان ذلك مهاداً استعرضت فيه الدراسة أظهر المقولات الخاصة بتصور الأقدمين، السابقين واللاحقين لابن جني، من عرب وغير عرب، للعلاقة بين الدال والمدلول، وهو التصور الذي ألقى بظلاله، بالضرورة، على ما جاء به ابن جني من أفكار، حاول بها التوصل إلى فرضية عامة تصف تلك العلاقة وتحللها.

الدال والمدلول عند ابن جني:

عرض ابن جني للعلاقة بين الدال والمدلول في عدد من مؤلفاته، غير أن الجهد الشامل والمركز في الموضوع، جاء في كتابه ذائع الصيت: الخصائص، وفيه توزع العرض لتلك

⁸ الأنياري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحاميد، دار الفكر، دبت، ص 811.

⁹ السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص 47. السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص 47.

¹⁰ عبدالنواب، رمضان، بحوث ومقالات في اللغة، ط 1، مكتبة الخانجي، 1982، ص 18.

¹¹ السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص 47.

¹² ابن جني، الخصائص، ج 2، تحقيق: محمد علي النجار، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1990، ص 152.

¹³ ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 155.

¹⁴ ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 157.

¹⁵ ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 162-163.

¹⁶ ابن جني، الخصائص، ج 2، ص 159.

- إن ثمة ألفاظاً في اللغة تحاكي، في أصل وضعها، أصوات الطبيعة، ومن ذلك، ألفاظ من مثل: الغاق والبط والخازياز.

- إن أصوات اللغة، تتوزع على محورين، أما المحور الأول، فيتمثل في الحرف الأقوى، وأما المحور الثاني، فيتمثل الحرف الأضعف، وليس الحرف قوياً أو ضعيفاً إلا بما يناظره من أصوات، فالمفخم أقوى من المرقق، والمجهور أقوى من المهموس والوقفي أقوى من الاحتكاكي....

تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني:

ويشتمل الباب على محاور متواليّة، لعل أظهرها:

أ- اقتراب الأصول لتقارب المعاني:

كما في: هزّ وأزّ؛ وأزّ أقوى، لأنّ الهمزة أقوى من الهاء²²، ومنه العلب والعلم، إذ العلم الشق في الشفة العليا، والعلب الأثر، ومنه، العزب: الدلو العظيمة، وذلك لأنه يغرف من الماء بها، فذاك من غ ر ب، وهذا من غ ر ف، ومنه جبّل وجبّن وجبّر، لتقاربها في موضع واحد وهو الالتئام والتماسك، ومنه الجبل لشدته وقوته، وجبّن إذا استمسك وتوقّف وتجمع، ومنه جبّرت العظم، ونحوه، أي: قوته²³، وكذلك العسف والأسف، والعين أخت الهمزة، كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين، كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف²⁴.

ب- تقليب الأصول:

ومن ذلك، كلم وكمل وملك، فتقاربت الحروف لتقارب المعاني، وقد أطلق ابن جني على هذا الضرب من التقليب الاشتقاق الكبير²⁵.

ج- المضارعة بالأصول الثلاثة:

نحو عصر الشيء، وقالوا أزله، إذا حبّسه، والعصر ضرب من الحبس، وذلك من عصر،

ج- سوق الحرف على المعنى المقصود:

ومنه قول العرب شدّ الحبل، ونحوه، فالشيين، بما فيها من التفشي، تشبه الصوت أول انجذاب الحبل¹⁷، ومنه، جرّ الشيء، إذ إنهم قدموا الجيم لأنها حرف شديد، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور، جميعاً، ثم جاءت الراء، وهي صوت مكرر، لتدل على تكرير الجر مرة بعد أخرى¹⁸.

د- تسمية الأشياء بأصواتها:

ومنه قولنا: "غاق" اسماً للغراب، محاكاةً منّا للصوت الذي يصدره، ومنه الخازياز للذباب، إذ سمي بذلك لصوته، وكذلك سمي البط بذلك، لصوته، ومنه قولهم: حاحيت وعاعيت وهاهيت، إذا قلتُ حاءٍ وعاءٍ وهاءٍ¹⁹.

هـ- دلالة الحرف على معنى عام إذا اقترن بحروف معينة:

ومنه أن الفاء إذا ما اقترنت بالبدال والتاء والطاء والراء واللام والنون، دلت على الوهن والضعف²⁰، وعليه، فإن الدالف للشيخ الضعيف والشيء التالف، والدنف للمريض، ومنه الطرف، لأن طرف الشيء أضعفه، والطنف لما أشرف خارجاً عن البناء، وهو إلى الضعف، لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل، وكذلك، فالطنف العيب، وهو إلى الضعف²¹.

إن أفكار ابن جني في هذا الباب تتلخص في ما يتلو:

- إن كل زيادة في المبنى تلحقها زيادة في المعنى، وذلك، كما في مبحث البنية الصرفية ودلالاتها على المعنى.

- إن ثمة أصواتاً في اللغة تنطوي على معنى محدد يلتصق بها وتؤشر عليه، وذلك من مثل دلالة الراء على التكرار، ودلالة الفاء على الوهن عند اقترانها ببعض الأصوات.

¹⁷ ابن جني، الخصائص، ج2، ص165.

¹⁸ ابن جني، الخصائص، ج2، ص166.

¹⁹ ابن جني، الخصائص، ج2، ص167.

²⁰ ابن جني، الخصائص، ج2، ص168.

²¹ ابن جني، الخصائص، ج2، ص168.

²² ابن جني، الخصائص، ج2، ص146.

²³ ابن جني، الخصائص، ج2، ص148-149.

²⁴ ابن جني، الخصائص، ج2، ص146.

²⁵ ابن جني، الخصائص، ج2، ص146. ابن جني، الخصائص، ج2،

ص146.

ومن هذا الباب صيغ المبالغة كالعطَّار وما إليه، ككذَّاب وسرَّاق، ومنه سَكِين، إنما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح به، ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى، العدول عن معتاد حاله، وذلك فُعال في معنى فَعِيل، نحو طَوَّال، فهو أبلغ معنى من طويل، وعَرَّاض فإنه أبلغ معنى من عريض، وكذلك خُفَّاف من خفيف، وقُلَّال من قليل، وسرَّاع من سريع.²⁶

إن قوة اللفظ والمعنى في الأمثلة المرصودة في هذا الباب لا تأتي، أولاً، إلا من باب التكرار لأصوات محددة، بما ينطوي عليه ذلك التكرار من تكرار لما يؤشر عليه الصوت من معنى، وذلك كما في اخلوق وعطَّار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن قوة اللفظ والمعنى قد يُتَحَصَّل عليهما بإحداث زيادات على بنية الكلمة كما في اقتدر، وقد يُتَحَصَّل عليها بإحداث زيادة مصحوبة بتكرار لصوت بعينه، كما في: وَضَاءٌ وَجَمَّالٌ وما إليها، جميعاً، من أمثلة تؤكد إن كل زيادة في المبنى تحدث زيادة في المعنى، وعليه، فإن كل أولئك لتندرج في إطار، لتؤكد فرضية ابن جني الأساسية بالقول بطبيعية العلاقة بين الدال والمدلول؛ بغض النظر فيما إذا كان الدال صوتاً أو لفظاً.

إن ما عرض إليه ابن جني في الأبواب الثلاثة سالف الذكر ظل يتمحور، في مجمله؛ حول القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، وإن جاء التمحور على أوجه متعددة، فهو تارة يبحث الأثر الدلالي لصوت محدد من أصوات الكلمة، وتارة يبحث الضلال الدلالية التي يلقبها شكل صرفي ما، وهو "ثالثاً"، يبحث المعنى الواحد في الثقليات المختلفة للجذر اللغوي الواحد، مع الأخذ بعين الاعتبار، ما يطرأ على الجذر ذاته من زيادات في المبنى أو تبديلات لصوت مكان آخر، وما يقود إليه ذلك كله من تغيير في المعنى.

وهذا من أزل، والعين أخت الهمزة، والصاد أخت الزاي، والراء أخت اللام.²⁶

ومن ذلك زَأر وسعل ووصل²⁷، وكذلك السيف والصوب، ذلك أن السيف يوصف بأنه يرسب في الضريبة لحدته ومضائه، ولذلك قالوا سيف رَسوب، وهذا هو معنى صاب يصوب، إذا انحدر.²⁸

إن ما ذهب إليه ابن جني في هذا الباب ينطلق من افتراض، يقوم على ما تؤشر عليه بعض الأصوات من معانٍ؛ وعليه، فإن دلالة الصوت على معنى محدد، يجعل تلك الدلالة تدور مع الصوت أينما حل، وبغض الطرف عن موقعه في اللفظ، بل إن تلك الدلالة لا تقتصر على الصوت، وحده، بل هي تمتد لتشمل الأصوات القريبة من الصوت؛ سواء أكانت القرابية مخرجية، كما في الهمزة والهاء، والميم والباء، أو كانت قرابة النظائر، كما في الصاد والزاي؛ إذ الصاد هي زاي مفخمة مهموسة؛ وسواء في ذلك كل ما يمكن الوقوف عليه من قرابات بين الأصوات.

قوة اللفظ لقوة المعنى:

ومنه خشن واخشوشن، فمعنى خشن دون اخشوشن، لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو، وكذلك أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه، قالوا: اعشوشب، وكذلك الأمر في حلا واحلولى وخلق واخلوق وغدن واغدودن.²⁹

ومثله فعل واقتعل، نحو قدر واقتدر، فاقتدر أقوى معنى من قولهم قدر³⁰، وكذلك قولهم: رجل جميل ووضيء، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا: وَضَاءٌ وَجَمَّالٌ، فزادوا في اللفظ لزيادة المعنى.³¹

²⁶ ابن جني، الخصائص، ج2، ص150.

²⁷ ابن جني، الخصائص، ج2، ص151.

²⁸ ابن جني، الخصائص، ج2، ص153.

²⁹ ابن جني، الخصائص، ج2، ص267.

³⁰ ابن جني، الخصائص، ج2، ص268.

³¹ ابن جني، الخصائص، ج2، ص269.

³² ابن جني، الخصائص، ج2، ص270.

مع الإشارة، هنا، إلى أن ما عرض له الثعالبي ليس حكراً على العربية، ففي كل لغة ألفاظ تحكي أصواتها معانيها⁴⁰، ولعل مقولات الثعالبي في هذا السياق تكون سبقاً زمنياً لبعض من اللغويين الغربيين الذين قالوا بمحاكاة بعض الكلمات في اللغة لأصوات الطبيعة، كأن يصيح الزئير اسماً للأسد⁴¹، وهو ما يعرف بمذهب الأناماتوبيا.

والحق، إن هذه المحاكاة ليست مضطربة، إذ إن هذه الألفاظ المحاكية لأصوات الطبيعة لا تكون في كل اللغات على نحو واحد، ولو كانت، أي: تلك الألفاظ، على نحو واحد، لكانت العلاقة فيها بين اللفظ والمعنى علاقة طبيعية⁴².

وممن وافق ابن جني في ما ذهب إليه من طروحات: الفارابي، إذ إنه فصل بين الشازب والشاصب؛ فالشازب الضامر من الإبل وغيرها، وأما الشاصب، فأشد ضمراً من الشازب⁴³.

من جانب آخر، أخذ السيوطي بمذهب ابن جني بالفصل بين الحرف الأقوى والحرف الأضعف؛ إذ جعل العرب، وفق السيوطي، الحرف الأضعف والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً، أو صوتاً، وجعلوا الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً⁴⁴.

والسيوطي، وبوصفه امتداداً لطرولات ابن جني، يفترض أن الجهر أقوى من الهمس، والتفخيم أقوى من الترقيق، والإظهار أقوى من الإخفاء، وما إلى ذلك، وهو افتراض يتناقض وما تذهب إليه الصوتيات المعاصرة، فالجهر والهمس والتفخيم والترقيق ومواضع النطق وآلياته وطرائقه، ليست إلا ملامح يتمايز بها صوت عن آخر، ومن ثم، فليس في الملامح تلك خصائص القوة

دراسة ابن جني للدال والمدلول/ تلقي الأقدمين: سبق ابن جني في بعض ما ذهب إليه من طروحات بإشارات كثيرة ومتنوعة للغويين العرب؛ فسيبويه بحث الأمر في أكثر من موضع في الكتاب؛ انظر إليه يقول: "أما ما كان من الجوع والعطش فإنه أكثر ما يبنى من الأسماء على فعلان، ويكون لمصدر "الْفَعْل"، ومنه علهان، طيان، وكلها متعلقة بالأكل³³.

وأشار ابن قتيبة إلى مثل ذلك بتفريقه بين القبض والقبص؛ فالقبض بجميع الكف، والقبص بأطراف الأصابع، وتفرقه بين الخامدة والهامة؛ فالنار الخامدة ما سكن لهيها ولم يطفأ جمرها، والهامة ما طفئت وذهبت البتة؛ كما فصل ابن قتيبة بين الحزم والحزن؛ إذ الحزم من الأرض أرفع من الحزن³⁴.

وقد وافق ابن جني في بعض ما ذهب إليه نفر من العرب القدماء، منهم ابن فارس، إذ جعل الصوت دليلاً على المعنى في ألفاظ خاصة، أطلق عليها أسماء الأصوات، كما في "أَح"، إذ للهزمة والحاء أصل واحد، هو حكاية السعال، وما أشبهه من عطس وغيظ، وكله قريب بعضه بعض³⁵.

وممن وافق ابن جني الثعالبي، إذ عرض في فقه اللغة وسر العربية لكثير من الألفاظ التي تدل أصواتها على معانيها، كالندنة، إذ يتكلم الرجل كلاماً نسمع نغمته ولا نفهمه³⁶، والجأأة، الصوت بالإبل لدعائها إلى الشرب³⁷، والنحنة، حكاية قول المستأذن، والفخيخ، صوت النائم³⁸، والصهيل، صوت الفرس في أكثر أحواله³⁹.

³³ سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، مصر، الهيئة المصرية العامة، 1975، ص21.
³⁴ ابن قتيبة، أدب الكاتب، بيروت، دار صادر، 1967، ص223.
³⁵ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجبل، 1991، ص9.
³⁶ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: سليمان البواب، دمشق، دار الحكمة، 1984، ص220.
³⁷ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص223.
³⁸ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص226.
³⁹ الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، ص227.

⁴⁰ وافي، علي، فقه اللغة، القاهرة، دار النهضة، 1975، ص171.

⁴¹ أنيس، أسرار اللغة، ص69.

⁴² عبدالتواب، بحوث ومقالات في اللغة، ط1، ص18.

⁴³ الفارابي، ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، القاهرة، 1974، ص345.

⁴⁴ السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص53.

وكذلك ذهب المبارك إلى أن القاف تدل على الاصطدام أو الانفصال، كما في: قَدَّ وقرع ودقَّ وشقَّ وطقَّ؛ والسين إنما تشير إلى اللبونة والسهولة، كما في: سهل وسلم وسلَّ، وسال، ومس وملس وسحب⁴⁷.

إن الكلمة ثلاثية الجذر، وفق المبارك، إنما تعبر عن معنى محدد، هو حاصل الجمع لمعاني أصواتها الصوامت الثلاثة، كأن نقول، مثلاً: إن "غرق" يُحصَل على معناها من حاصل الجمع لمعاني الغين والراء والقاف، فالغين تدل على غيبة الجسد في الماء، والراء تدل على تكرار الغياب والاستمرار في السقوط، والقاف تدل على اصطدام الجسد بقعر الماء، وعليه، فإن المعنى المتحصل عليه من اجتماع المعاني الجزئية للأصوات الصوامت، هو معنى اللفظ "غرق"⁴⁸، وهو معنى كلي للفظ.

وفي إطار من التلقي لتلك الطروحات، جاءت قرارات المجامع اللغوية بصياغة البنية الدالة على الحرفة أو شبهها من الوزن "فعالة"، وبأن يصاغ المصدر على وزن فعلان للفعل اللازم مفتوح العين، إذا دل على التقلُّب والاضطراب، وكذلك يقاس فُعال للمرض، وفعال وفعليل للصوت⁴⁹.

أما الوزن فعالة فمثله من الألفاظ المستحدثة قبالة وسمانة وبرادة، ومما ورد من الألفاظ الحديثة من أسماء الأمراض وجاء على وزن فُعال كُساح ورُكام.

وفي السياق نفسه أفاد المعجميون العرب المعاصرون مما جاء عند ابن جني ومما ورد في قرارات المجامع اللغوية من دلالة البنية الصرفية على معنى محدد، فوظفوا ذلك في ابتكار المصطلحات العلمية، ومن ذلك ما جاء عند واضع معجم المصطلحات الحراجية "لقد اتبعت قرارات المجمع بالقاهرة في قياسية عدد من

أو الضعف، وعليه، فإننا ننكر القول بالحرف الأقوى أو الأضعف.

ونقد ابن عصفور ما ذهب إليه ابن جني في باب التصاقب بقوله عن تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني: إنه من ابتكار ابن جني، ولم يقل به أحد من النحويين إلا ما نقله أبو الفتح نفسه عن أبي علي الفارسي، وهو ضرب من الاشتقاق غير مأخوذ به لعدم اطراده، ولما يلحق به من التكلف لمن رآه⁴⁵.

والحق، أن ليس لابن جني في ما ذهب إليه من علاقة طبيعية بين الدال والمدلول في الأبواب الثلاثة، لا باب التصاقب وحده، من أولية في الوضع أو الابتكار، بل أولية التوسع في الفكرة الأساس لدرجة الإسراف والتكلف، فقد سبق ابن جني في طروحاته حول العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، من باحثين ولغويين كثر، لا على مستوى الثقافة العربية، فحسب، بل على مستوى الثقافة الإنسانية؛ فيونانياً، قال بذلك سقراط وأفلاطون، وعريباً، قال به من قبل ابن جني سيبويه وابن قتيبة، وواقفه كثيرون منهم ابن فارس والثعالبي والسيوطي.

دراسة ابن جني للدال والمدلول/ تلقي المعاصرين:

احتفل بعض المعاصرين العرب بطروحات ابن جني في العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، ولعل أظهر أولئك، محمد المبارك، إذ عرض لما يشبه "الفرضية اللغوية"، وأطلق عليها "القيمة التعبيرية للحرف العربي"، مستلهماً بذلك جملة الأفكار التي جاء بها ابن جني، فزعم أن صوت الغين يدل على الاستتار والغيبة والخفاء، كما في: غاب وغار وغاز وغان، وغام وغمم وغمز وغمز وغرب وغمش وغمط؛ وزعم أن صوت "النون" إنما يدل على الظهور والبروز، كما في نفث ونفخ ونبت ونزع ونجم⁴⁶.

⁴⁷ المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ط7، ص105.

⁴⁸ المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية، ط7، ص105.

⁴⁹ الأفغاني، سعيد، في أصول النحو، ط2، سوريا، مطبعة الجامعة السورية، 1957، ص113.

⁴⁵ ابن عصفور، الإشبيلي، الممتع في التصريف، ط1، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، حلب، المكتبة العربية، 1970، ص40.

⁴⁶ المبارك، محمد، فقه اللغة وخصائص العربية، ط7، دار الفكر، 1981، ص105.

بين القبائل العربية⁵³، ولعل الشاهد المكرور في المصادر اللغوية العربية، حكاية عن لسان الأعرابي في قوله: صقر، زقر، سقر، خير ما يؤتى به دليلاً على أن ما ورد من أمثال ذلك عند ابن جني وغيره ليس إلا لاختلافات لهجية يعرفها كل منا في واقع اللهجات العربية المعاصرة. ومن ثم، فإن هذه الأمثلة وأضرابها لا ينظر إليها بوصفها كلمات متخالفة ذات دلالات متنوعة، بل هي كلمة واحدة تغيرت بتغير اللهجات، ومن أمثال ذلك مما ورد عند ابن جني (الوسيلة والوصيلة والأسف والعسف وهز وأز).

وعليه، فقد رفض أكثر المعاصرين العرب الفكرة الأساس التي انطلقت منها طروحات ابن جني، وهي الفكرة القائمة على افتراض العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، ولعل أظهر ما اتكأ عليه الرافضون⁵⁴:

- أن اللفظ الواحد في اللغة الواحدة قد يعبر عن دلالات متنوعة، وهو ما يطلق عليه المشترك اللفظي.

- أن المعنى الواحد قد يعبر عنه بعدة من الألفاظ، وهو ما يسمى بالترادف.

- أن التطور اللغوي قد ينتج عنه تطور الألفاظ وتغيرها من جهة الشكل مع احتفاظها بذات الدلالات، وقد ينتج عنه تغير الدلالات مع الاحتفاظ بالشكل الأوحده.

بل إن بعضاً ممن قالوا بمثل هذه العلاقة بين الدال والمدلول من الغربيين، مثلاً، يحذر جمهور اللغويين من المغالاة، إذ يرى أن هذه الظاهرة لا تكاد تضطرد في لغة، والألفاظ، المحاكية لأصوات الطبيعة تفقد صلتها بالمعنى، بمرور الأيام⁵⁵.

والعلاقة بين اللفظ والمعنى عند إبراهيم أنيس، علاقة مكتسبة، لا سحر فيها ولا غموض،

الأوزان، ومنها فعالة للحرفة كالغراسة من غرس، والحراجة من حرج⁵⁰.

ومن البنى التي أفاد منها المعاصرون بنية استنقل ودلالاتها على الطلب⁵¹، كما في "الاستعلامات"، وهي لفظة أصبحت ذات شيوع في مختلف الأروقة والميادين.

إن ربط المعاصرين بين الدال والمدلول في ألفاظ محددة، لا يعني، بالضرورة، التسليم بما ذهب إليه ابن جني، كلاً، فالقول بأن "كسر" فيها مبالغة وشدة أكثر من "كسر"، لا يقود إلى القول بالعلاقة بين الأصوات (ك، س، ر) وما تدل عليه من معنى، وبعبارة أخرى، فإن ذلك القول لا يقود إلى القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول.

على أية حال، فإن كثرة من المعاصرين العرب، من ذوي التوجهات اللسانية، وجدت نفسها في حالة تتخالف فيها مع طروحات ابن جني، ذلك أن ما جاء به الرجل من أمثلة تدل على القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول ليست إلا أمثلة يسيرة، والخروج منها ومحاولة سوق أمثلة أخرى تتساق معاً ليس إلا ضرباً من التكلف والتعسف، ومن ثم، العدول باللفظ عن المعنى الأصلي⁵²؛ وعلى سبيل التمثيل، فإننا إذا ما سلمنا، جدلاً، بدلالة القاف على الاصطدام في قد وقطع وما إليها، فإن تصفح المعجم العربي ليزودنا بكثير من ألفاظ تشتمل على القاف ولا تدل على الاصطدام ومعانيه، من مثل قوس وقبة وقلة.

وكثير من الألفاظ التي يبدو عليها التشابه، وبناءً عليه، عدت ألفاظاً مختلفة لجذور مختلفة، ليس الاختلاف بينها إلا ضرباً من التناوب الصوتي، وهو تناوب يعود للاختلافات اللهجية

⁵⁰ الشهابي، مصطفى، معجم المصطلحات الحراجية، مطبعة الترقى، 1962، ص6.

⁵¹ هلال، العربية، خصائصها وسماتها، ط4، ص281.

⁵² عبدالتواب، بحث ومقالات في اللغة، ط1، ص18؛ بكر، يعقوب، نصوص في فقه اللغة العربية، بيروت، دار النهضة، 1970، ص137؛ أنيس، أسرار اللغة، ط5، ص144.

⁵³ وافي، فقه اللغة، ص179.

⁵⁴ أنيس، أسرار اللغة، ط5، ص144.

⁵⁵ أنيس، أسرار اللغة، ط5، ص68.

إن المرء لا يعجز فقط عن إدراك هذه العلاقة، بل إنه على فرض وجود علاقة خفية هناك، لن يدري كيف يفسر تنوع الأسماء الموضوعية لهذا الشيء نفسه، وتباين هذه الأسماء في لغات مختلفة، فالتفاحة يعبر عنها بالكلمة *apple* في الإنجليزية، و *bomme* في الفرنسية، و *mauzana* في الإسبانية⁶⁰.

وكان فندريس عدّ القول بالعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول قولاً مستمداً من الظروف، بل إن فندريس عدّ القول بذلك، أي العلاقة الطبيعية، لا يثير في يوم الناس هذا إلا الابتسام⁶¹.

من جهتها، أنكرت الدراسات السيكلوسانية مثل هذه العلاقة الطبيعية، وأكدت ما ذهب إليه اللسانيات النظرية؛ إذ إن العلاقة بين الدال والمدلول، وفق هؤلاء السيكلوسانيين، لا تعدو أن تكون علاقة آلية مادية تربط ما بين المثير والاستجابة⁶².

حاصل التكلم في ما سلف من أوراق، أن طروحات ابن جني في العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول كانت امتداداً للطروحات اليونانية وامتداداً لغير ذلك من طروحات، بما في ذلك طروحات العرب الأقدمين السابقين لابن جني، وعليه، فإنه ليس لابن جني في الأمر أولية الابتكار أو الاكتشاف، بل أولية التوسع والتمدد في المساحة المفترضة للعلاقة بين الدال والمدلول.

وعلى أية حال، يمكن لنا القول إن اللسانيات المعاصرة بمقولاتها العلمية الصارمة، تجاوزت مثل هذه الطروحات، عامة، سواء في ذلك أصدرت عن ابن جني أم صدرت عن غيره من اللغويين.

وعليه، فإن القول بالعلاقة الطبيعية ليس إلا من باب التوهم⁵⁶.

من جانب آخر، يرى تمام حسان أن ليس في الفكر ما يفرض شكلاً معيناً للرموز الصوتية، فهذه الرموز موضوعة وضماً اعتباطياً، وليست وظيفة اللغة في هذا أن تخلق وسطاً صوتياً للتعبير عن الأفكار، ولكن أن تقوم بدور الوسيط بين الفكرة والصوت في حالة تدعو كلاً منهما إلى الآخر، والمعنى بهذا الاعتبار علاقة متبادلة بين الاسم والفكرة تجعلهما يتداعيان⁵⁷.

إن اللغويين العرب المعاصرين في رفضهم لطروحات ابن جني وأفكاره، ليسوا إلا امتداداً للرفض اللساني المعاصر، لأي شكل من أشكال العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، وهو رفض يطبق عليه اللسانيون المعاصرون؛ فسوسير المؤسس للسانيات المعاصرة ينكر العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، وبعبارة سوسير نفسها المنقولة للعربية، فإنه ليس ثمة من علاقة طبيعية بين الدال والمدلول، بل إن العلاقة اعتباطية أو ارتجالية⁵⁸؛ إن اعتباطية العلاقة لا تشير، هنا، إلا إلى عدمية العلاقة، ومن ثم، فإن الدال اللغوي (الصوت / اللفظ) غير محمل بأي إشارة للمعنى، فالمتصور الذهني "شجرة" لا تربطه أي علاقة داخلية بالمتواليات الصوتية: "الشين والفتحة والجيم والفتحة والراء والفتحة والتاء".

لقد اقتزنت المقولات اللسانية الراضية للعلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول، والقائلة باعتباطية العلاقة، بتطور الدرس الصوتي المعاصر⁵⁹، وما حققه من استكشافات لسانية.

يقول ستيف أولمان: "من الواضح أنه ليس هناك علاقة طبيعية بين الصيغة والمعنى...، إذ

⁵⁶ أنيس، أسرار اللغة، ط5، ص78.

⁵⁷ حسان، تمام، مناهج البحث في اللغة، ط2، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1974، ص244.

⁵⁸ سوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرماضي، الدار العربية للكتاب، 1985، ص50.

⁵⁹ أنيس، أسرار اللغة، ط5، ص144.

⁶⁰ أولمان، ستيف، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، دت، ص24.

⁶¹ فندريس، اللغة، ترجمة: عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، دت، ص40.

⁶² أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص26.

المراجع:

- سبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، الهيئة المصرية العامة، 1975.
- السيوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، بيروت، دار الجيل، د.ت.
- الشهابي، مصطفى: معجم المصطلحات الحراجية، مطبعة الترقى، 1962.
- عبدالتواب، رمضان: بحوث ومقالات في اللغة، ط1، مكتبة الخانجي، 1982.
- الفارابي: ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، القاهرة، 1974.
- فندريس: اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.
- المبارك، محمد: فقه اللغة وخصائص العربية، ط7، دار الفكر، 1981.
- هلال، عبد الغفار: العربية، خصائصها وسماتها، ط4، 1995.
- وافي، علي: فقه اللغة، القاهرة، دار النهضة، 1975.
- ابن جني: الخصائص، ج2، تحقيق: محمد علي النجار، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1990.
- ابن عصفور، الإشبيلي: الممتع في التصريف، ط1، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، حلب، المكتبة العربية، 1970.
- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ط1، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجيل، 1991.
- ابن قتيبة: أدب الكاتب، بيروت، دار صادر، 1967.
- الأفغاني، سعي: في أصول النحو، ط2، سوريا، مطبعة الجامعة السورية، 1957.
- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، د.ت.
- أنيس، إبراهيم: أسرار اللغة، ط5، مصر، 1975.
- أولمان، ستيف: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، القاهرة، مكتبة الشباب، د.ت.
- الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: سليمان البواب، دمشق، دار الحكمة، 1984.
- حسان، تمام: مناهج البحث في اللغة، ط2، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1974.
- سوسير: دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي، الدار العربية للكتاب، 1985.

